لِكَلْتَ أَنَّ ٱلْحُسْنَ صارَ صَوْتا وَأَنَّكَ ٱلسَّماءَ قد عَلَوْتا
تَسْمَعُ فيها زُمَرَ ٱلْمَلائِكْ وَفِرَقَ ٱلْأَبْرارِ في ٱلْأَرائِكْ
يُسَبِّحونَ رَبَّهُمْ بِنَغَمِ «ما خَطَرَتْ على قُلوبِ ٱلنَّسَمِ» (١
وَٱلْأَرْغُنُ ٱلْباغي مُحاكاةً لَهُ بِلَحْنِهِ عابِدُنا يُؤَلِّهُ
وَٱلْعاشِقُ ٱلْمُدَلَّهُ ٱلْمُوَلَّهُ من سَمْعِ إِيقاعاتِهِ يُنَبَّهُ
في هَيْكَلِ أَصْواتِهِ تُعْتَبَرُ إِنْعامَ رَبِّ تَوْبَهُ يَنْتَظِرُ
وَإِنْ تَمادَى في دَياجي ٱلْغَفْلَةِ جَرَسُهُ يَجْعَلُهُ في يَقْظَةِ

(لهُ بقية)

سياحة استقفيّة الى بلاد بشارة

لحضرة المرسل اللبناني الفاضل المتوري ابراهيم حرفوش (تابع)

زيارة ميرون واثارها

في جنوبيّ صفد على مسافة ساعة ونصف منهـا تقريباً قرية حقيرة تُدعى ميرون وكانت في ايّام يوسيفوس مدينة آهلة وقد ذكرها هذا المؤرخ في تاريخ الحرب اليهوديّة وهو يدعوها مروت وجعلها الحدّ الفاصل بين بلاد الجليل الاسفل والجليـل الاعلى من املاك سبط نفتالي وهي قائمة في اوّل السهل على مرتفع من الارض قريباً من جبـل الجرمق الذي يعلو عن سطح البحر ١١٩٨ متراً. ولا يسكنها اليوم سوى بعض المسلمين واليهود

وقد اشتهرت ميرون بمدرسة يهوديّة كانت تُعرف بمدرسة التلمود فرغبنـا في نظر آثارها ورافقنا في زيارتنا سعادة قنصل النمسة صديقنا. وكنّا في طريقنا نلقى زوّار اليهود عائدين الى صفد بعد تأديتهم في ميرون فرائض الاكرام لقبر ربي شمعون احـد مشاهير الربيين وتلميذ عقيبة الحبر الذي ازهر في اواخر القرن الاوّل للمسيح. وقبرهُ قائم ضمن

(١) راجع نبوّة اشيا (٦٤: ٤) و١ كورنتس (٢: ٩)

حجرة فسيحة وعليه آثار الشموع والزيت الذي يتدفق من القناديل المسرجة لاكرامه. وفي حجرة ثانية نحو الجنوب قبر ابنه الربي العازر. وبالقرب من القبرين مساكن ذريته يحلُّ فيها الزوَّار من اليهود . وفي لحف الجبل قبور اخرى عديدة اخصُّها قبر الربيين الشهيرين وكاتبي التلمود الربي هلل والربي شماي. واليهود يكرمون هذه المدافن اكراماً فائقاً ويتقاطرون اليها في ايام اعيادهم الوفا مؤلفة من صفد وجوارها فيقيمون عندها الافراح ويعاقرون الخمرة فيعودون المساء ثملين الى ديارهم

اما مدرسة التلمود فانقاضها قائمة على شمال قبر الربيين وهناك اثار مجمع من طرز مجمع الجش وكفر برعم كما سترى وجهته الشمال ومدخله من الجنوب وحائطه الجنوبي لم يزل معظمه قائما وهذا المجمع مبني على صخر عظيم وسيع كقطعة من جبل هندمته ايدي العمال والحائط الغربي منقور في نفس الصخر وكذلك بلاط المجمع فهو الصخر ذاته هندمهُ العمال فصار بلاطة واحدة اما الجداران الشرقي والشمالي فقد انقضا وتبعثرت حجارهما . وعرض هذا البناء ١٦ قدماً وطولهُ ٣٢ قدماً ويرجح العلَّامة كرين انهُ يرتقي الى سنة ١٢٠ للمسيح . ومن عن شمال البناء على مسافة قريبة كهوف عديدة منقورة في الصخور بهيئة متقنة

ولما كانت الشمس تضيَّفت للمغيب همنا في العود الى صفد وادركنا المدينة عند اول الغسق والنفس في انقباض من الوحشة التي شاهدناها في ميرون وعلى الطريق اذ لا انيس للسافر سوى بعض اشجار السنديان وبعض اشجار زيتون قديمة العهد شاهدة على فناء الاجيال من البشر الذين زرعوها واستثمروها ولا تسمع الَّا الذباب والبعوض ونعق البوم وهدير الحمام البرّي . ولمَّا طرق اذني شجوها تذكرت ما قالهُ الشاعر :

لقد راعني للبين نوحُ حمامةٍ على غصن بانٍ جاوبتها حمائمُ
هرائفُ امَّا من بكينَ فعهدهُ قديمٌ — وامَّا — شجوهنَّ فدائمُ

وفي يوم الاثنين الواقع في ٨ من تشرين الاوَّل قمنا من صفد نريد زيارة موارنة كفربرعم فسرنا شمالًا مجتازين في مزرعة عين الزيتونة حتى بلغنا طيطبا وهي قرية يسكنها المسلمون ودورها مبنيَّة بالحجارة البركانيَّة يتخلَّلها شجر التين وفيها بقايا مدينة قديمة . وكان بودنا ان نعرّج على خربة النبرتين لنرى آثار ابنيتها السالفة وخصوصاً مجمعها

اليهودي البديع الصنع المثلث الاسواق المزدان بنقوش رمزيّة جميلة بينها الشمعدان ذو المشاعل السبعة لكنّ ضيق الوقت لم يسمح لنا بذلك

وهنا ودّعنا سعادة القنصل لادسلاس وشكرنا لطفهُ فرجع هو الى صفد وواصلنا نحن سيرنا الى كفربرعم ثم قطعنا سهل الجشّ البركاني ومررنا بقرية راس الاحمر فزرنا شيخها عليّ الايوبي ثمّ مشينا الى الجش فبتنا فيها وفي صباح الغد غادرناها فوصلنا الى كفربرعم التي تبعد عنها نحو ساعة بالتقريب في شمالها. وعلوّها نحوٌ من ٨٤٠ مترًا فوق سطح البحر وكانت سابقًا من نصيب اشير وموقعها بين ثلاثة اودية شمالًا وغربًا وجنوبًا وسكّانها كلهم موارنة يبلغ عددهم نحو ٥٠٠ يُقسمون الى عشرة بطون اقدمهم بيت الخوري الذين اصلهم من حدث الجبة قدموا الى كفربرعم منذ نحو ٢٠٠ سنة اما الباقون فمن جهات مختلفة فبيت سوسان من كسروان وبيت مخول ابي صافي من قليعة مرجعيون وبيت مارون تركيّة من رميش وبيت حنّا موسى من عقتنيت وبيت السروع من سرعل ثمّ قيتوله وبيت فرح من القوزح وبيت دياب من بيت لحم وبعضهم مجهول الاصل. واهل كفربرعم قوم اتقياء محافظون على سذاجة العيشة متهيّئون لما ينطبع في نفسهم من الخير وكانوا يتلقّون المواعظ التي نلقيها عليهم مدّة اقامتنا بينهم بغاية الرغبة والتقى ومعظم عناية اهل كفربرعم في الزراعة والفلاحة ورعية المواشي كغيرهم من موارنة بلاد بشاره. وفي مدخل قريتهم تلال من السماد الذي يحرقونهُ بالنار ولو سمّدوا بهِ اراضيهم لأصلحوها وانتفعوا منها ونجوا من روائحها الوبيئة كما نبّههم الى الامر سيادة راعيهم. ولهم كنيسة ومدرستان يديرها الآباء اليسوعيّون

وفي كفربرعم هيكل قديم او كنيس بديع لليهود ذو هندسة فخيمة قد اصاب الخراب قسمًا منهُ فبدّد حجارتهُ في كل انحاء القرية. وكان احد الاهلين سقّف قسمًا منهُ بالاخشاب فجعلهُ كمنزل لسكناه فابتاعهُ منهُ سيادة المطران بولس بصبوص يوم زار هذه القرية ثمّ فحصتهُ البعثة الالمانيّة سنة ١٩٠٤ واجرت فيهِ حفريات كشفت رسمهُ الاصليّ تمامًا وظهر البلاط الذي رُصفت بهِ ارضهُ. فكان لهذا الهيكل رواق يستند الى عواميد ضخمة بقي بعضها ودائرتها تبلغ مترًا و٨٥ س وكانت سعة الرواق خمسة امتار و٥٠ س وجهتهُ الجنوب كمدخل الهيكل. وكان يُدخل الى الهيكل من ثلاثة ابواب اكبرها الباب الاوسط. وعلى بعد مترين من هذا الجدار ثلاثة عواميد تقابل ابواب

المدخل الثلاثة بقي منها العمود المقابل للباب الاوسط مع قاعدتي العمودين الآخرين. وكان طول هـذا الهيكل ١٨ مترًا و٤٠ س وعرضهُ ١٣ م و٤٠ س . ومعظم هذا البناء قد استولى عليهِ الخراب الّا جدارهُ الجنوبيّ اي مدخلهُ الذي لا يزال في حالة حسنة يمكن اصلاحهُ بسهولة. وكان فوق عتبة بابه الاوسط كتابة عبرانيَّة قرأها رينان هذا تعريبها « ليكن السلام في هذا المكان وفي كل امكنة اسرائيل » يشوع اللاوي ابن لاوي صنع هذه العتبة فلتحلّ بركة الربّ على عملهِ ». وهذه الكتابة لم نعثر على اثرها ثمَّ افادنا حضرة الخوري الجليل يعقوب غانم الذي سكن زمناً طويلًا في تلك الجهات انَّ في بيت طانيوس الخوري من كفربرعم حجرًا عليهِ كتابة عبرانيَّة معلقة بالطين داخلة في جدار بيتهِ ولعل هذا الحجر هو الذي اشار اليهِ رينان وفتر كتابتهُ

اما تاريخ هذا الهيكل فهذا ما دوَّنهُ عنهُ المهندسون الالمان في بحثهم الاخير يقولون انهُ من البنايات اليهوديَّة المشيَّدة على الطرز الروماني في غاية القرن الثاني للمسيح. وهم يرتأون انَّ الهياكل اليهودية او المجامع التي تُرى اثارهـا في كفربرعم وفي تلحوم وخربة تل البلاط وبقرب القوزح وفي خربة التبرتين وفي الجش والصفصاف وخربة كازه وقصيون كلها من هذا العهد وعلى طرز واحد اي الطرز الروماني مع بعض نقوش ورموز يهودية كغصون الجفنة وعناقيد العنب . ولم يكن لليهود هندسة بنائيَّة خصوصيَّة بل كانوا يخلطون بين الهندسة الرومانيَّة والهندسة اليونانيَّة لا يتفرَّدون الّا ببعض الاعراض . وكانت مداخل مجامعهم ابدًا من جهة الجنوب ووجهتهم الشمال بخلاف الهياكل الوثنية

معليا وقلعة القرين

للاباء اليسوعيين في قرية معليا مدرسة للاحداث ودير صغير لراهبات قلبي يسوع ومريم فعرض للاب بيليسيه مدير المدرسة اشغال قضت بذهابهِ اليها فاشتدت رغبتي برافقتهِ لمشاهدة قلعة القرين الشهيرة مع حصن جدين لو تيسر ذلك . والمسافة بين كفربرعم ومعليا نحو اربع ساعات فغادرنا كفربرعم صباحًا واخذنا وجهة الجنوب الغربي وبعد ربع ساعة مررنا بقرية سعسع القائمة على اكمة اشبه بحصن صعب المرام منيع المرتقى تشرف على السهول المحيطة بها وفيها آثار بنايات قديمة وهي واقعة في نصيب سبط اشير. وكان لليهود فيها مجمع ومدرسة عند ما زارها اسحاق شياو الجوالة اليهودي سنة ١٣٣٤ .

ولظاهر العُمَر مواقع شهيرة مع سكان سمسم يرويها المكحول عن اجدادهم وسكّانها الحاليون من المسلمين يبلغ عددهم نحو ٥٠٠ نسمة تقريباً

وبعد ان قطعنا السهل الممتد امام سمسم توغّلنا في نقب بين احراج دغلة لا صانر فيها ولا ديّار الى ان ادركنا بعد ساعة قرية اسلاميّة فوق رابيتين يفصل بينهما وهو من الارض فيه اشجار الزيتون والتين والكرم واسم القرية دير القاسي التي دعاها الفرنج Cassie وكانت تابعة لامارة القصر الملكي في معليا وتعلو عن البحر ٤٤٢ متراً شاهد فيها كرين آثار كنيسة بناها الفرنج سابقاً اما آثار السور فهي حديثة

ثم انحدرنا من دير القاسي الى وادٍ عميق يدعى وادي المسقا وهو من تشعبات وادي القرين الشهير واعطاف هذا الوادي تكسوه خضرة الاحراج ثوباً جميلاً وبعد ان صعدنا من هذا الوادي عند ملتقى وادٍ اخر يدعى وادي الجيس او وادي الحرب وقع نظرنا على اكمة بين الواديين وفي اعلاها بناية قديمة كانت معبدًا او حصناً تدعى خربة فرحاطه بقربها عين ماء

ثم واصلنا السير الى معليا فانكشفت لنا بعد قليل على شمالنا على رابية بديعة قرية طرشيحا التي دعاها قدماء الفرنج Tersiha اكثر اهلها المسلمون وهم نحو الفين لهم ثلاثة جوامع واحسنها جامع عبد الله باشا والي عكا . وفي طرشيحا ايضاً روم كاثوليك كان عددهم ٥٠٠ نفس لما زارهم كرين قبل ٣٠ سنة ولهم كنيسة . وكانت هذه القرية عامرة في القرون الوسطى وتابعة للقصر الملكي في معليا . ثم توغلنا في سهل مزدان ببعض اشجار الزيتون والتين وعيوننا شاخصة الى قرية معليا القائمة امامنا على رابية بديعة فدخلناها قرب الظهيرة

معليا بلدة قديمة كانت واقعة في املاك سبط اشير وكانت تدعى معلوت لوقوعها فوق تلّ عالٍ تحدق باعطافه اشجار التين ومزارع التبغ . وفي أعلى التلّ آثار حصن قديم بُني بنحيت الحجارة الضخمة وعلى جوانبه اربعة بروج . ثم تحوّل الحصن بعد ردحة من الدهر الى بلدة مسوّرة تُرى منها بقايا صالحة . وفي مقربة من القرية الخربة حوض كبير منقور في الصخر . وقد تكرّر اسم معليا في القرون الوسطى يدعوها المؤرخون بالقصر الملكي (Castrum regium) يتبعهُ عدّة دساكر ابتناها الرهبان الالمان سنة ١٢٢٠ من اثون كنت دي هنبراك

قلعة القرين

قلعة جدين

ومعليا يسكنها اليوم قومٌ من الروم الكاثوليك يبلغ عددهم نحو ٥٠٠ نفس وكنيستهم حديثة جدَّدوا بناءها على انقاض كنيسة أخرى قديمة كانت تزينها العواميد المتوَّجة باكاليل من الطرز القورنثي

وبعد ان تناولنا طعام الغداء في معليا همسنا في المسير الى قلعة القرين فامتطينا خيلنا وما ابتعدنا عن القرية بضع دقائق حتى وصلنا الى الطريق الرومانيَّة التي كان الرومان نقروها في الصخر يسيرون عليها عجلاتهم بين معليا والبصَّة وقلعة القرين لم يثبط همَّتهم في عملها وعورة هذه الامكنة . ثم انحدرنا بين الادغال والاحراج الى وادٍ يسمَّى وادي الدم وبعد ساعة لاح لنا ذاك الصرح الشامخ الذرى وهو مبنيٌ بحجارة كبيرة عملت فيها صروف الزمان فحوَّلتها الى لون قاتم يقرب الى السواد وكان يثير فينا منظرها هواجس الافكار

عجبًا ما كلَّمتنا الدارُ اذ سُئلتْ وما جا عن جواب خلتُ من صمم

ثم فتَّشنا على منحدر سهل الى وادي الدم لنزور هناك بناء قائمًا على ضفَّة نهر القرين الشماليَّة فقطعنا النهر من جهة الغرب بازاء القلعة ثم انعطفنا نحو الشمال فاذا بقبو امامنا تكسو جدرانهُ آثار الدخان ممَّا اوقدهُ الرعاة في فصل الشتاء ليصطلوا بنارهِ . وبالقرب منهُ صفَّة من البناء داخلة في النهر ذهب كثير من حجارتها ولعلَّها كانت جسرًا يعبرون فوقهُ الى القلعة . فدخلنا القبو واذا بهِ سرداب يتصاعد فيه السائر على درجٍ مُتقن النحت فوقينا الدرج وبلغنا الى بهوٍ واسع من الطرز النورماني قد انقضَّ جداراهُ الغربي والشرقي وبقي سقفهُ وكان يُصعد من هذا البهو الى بناء اعلى ثم يُرقى منهُ تدريجًا الى قمَّة الرابية المشيَّدة عليها القلعة على علو ١٤٠ مترًا عن النهر . لكنَّ انقاض البناء من ردم والتراب المنهال قد سدَّت السرداب المؤدي الى القلعة من الجهة الشماليَّة فلزم الامر ان ننحدر ونعود الى الجهة الجنوبيَّة لنتسلَّق الى أعلى القلعة من وادي الدم حيث كنَّا تركنا خيلنا فتوقَّلنا الربوة وبلغنا أعلى البناء بعد شقّ النفس

انَّ موقع هذه القلعة من احصن المراكز فكان اهلها امنع من عقاب فانها على هضاب متوعرة يجري حولها نهر القرين غربًا وشمالًا في وادٍ عميق يدعوه سكَّان تلك الناحية وادي هردويل (Hardouin) احد فرسان القرون الوسطى . ويحيط بها جنوبًا وادي الدم امَّا الجهة الشرقيَّة فينتصب فوقها جبل صعب المرتقى حُفر بينهُ وبين القلعة خندق

عميق ومنهُ أُخذت الحجارة لبناء الحصن. فترى انّ الطبيعة والصناعة اتفقتا في تحصين هذا المقام وكان طول القلعة مئتي قدم وعرضها ٣٥ قدماً وعلوها فوق البحر ٣٨٠ متراً بالتقريب

وقد اكثر كتبة الاجيال المتوسطة من ذكر هذه القلعة فانّ غليلموس الصوري يدعوها فروشاستياوس (Frauschastiaus) ودعاها غيره بالجبل الحريز او منفور (Monfort) وكذا دعاهُ الفرسان الالمان في سجلاتهم ستاركنبرغ (Starkenberg). اما العرب فدعوهُ القرين وهو تصغير قرن بمعنى الجبل الصغير. والمظنون ان الرومان ابتنوا اولًا هذه القلعة ثمَّ حصنها هرمان سلزا (Hermann Salza) رئيس الفرسان الطوطونيين سنة ١٢٢٩ وسكنها رهبانهُ الى سنة ١٢٧٦ حيث دخلها بيبرس البندقداري ولم يبق منها اليوم الّا جدارها الغربيّ والجنوبيّ حيث كان مدخل القلعة من الجنوب كما هو ظاهر من العتبة ومن محلّ مصاريع الابواب. وكذلك نجت من آفات الدهر آثار المعبد القديم الذي كان يقيم فيهِ الفرسان فرائض دينهم وقيل انهُ كان مستودع سجلّاتهم وهو بناء خطير غاية في الفخامة وكانت فيهِ العمد الكبيرة ترى منها قواعدها التي يبلغ محيط استدارتها ثلاثة امتار

وتجوّلنا بين تلك الاثار فمتّعنا بها النظر وتأسفنا على ما فعل بها الدهر الكوّرد وكنّا نفكر في من شيّد ذلك الصرح الفخيم وكأنّنا نسمعه يقول:

ونحن عمّرنا القصر كنّا ولاتهُ نضاربُ عنهُ من اتانا وندفعُ
وما كان يبني ذاك في الناس غيرنا ولم يكُ حيٌّ قبلنا ثمَّ يمنعُ
وكنّا ملوكًا في الدهور التي مضت كُسرنا فقل لله يولي ويرفعُ

وفي مساء النهار عدنا الى معليا فبتنا ليلتنا فيها وكان قصدنا ان نقوم صباح الغد الى قلعة جدين الشهيرة وهي تبعد عن قصر معليا نحو ساعتين وتُعدّ من افخم آثار القرون المتوسطة ثمَّ ربما ظاهر العمر والي عكة الّا انّ واقعًا لم يكن في الحسبان عرض لنا فاضطررنا الى تغيير سيرنا فعدنا الى كفربرعم. وترى في مقالتنا هذه رسم قلعتي القرين وجدين تلطف سعادة قنصل النمسة في صفد واعارنا اياها وكان هو رسمها في بعض اسفاره

(التتمة لعدد آخر)

الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

ومن نظم بطرس كرامة المستجاد الذي لم يرو في ديوانه قولهُ يرثي الامير بشير الشهابي لمّا توفي في الاستانة سنة ١٨٥١:

اذا طلع النهارُ ارى الرجالا ... كما أبصرتُ في الليل الخيالا
واعجبُ كيف تطوي الارضُ ناسًا ... لو اجتمعوا بها كانوا جبالا
يخونُ الدهرُ شخصًا بعد شخصٍ ... كما تري عن القوس النبالا
اذا اغلقتَ دون الموت بابًا ... تناول الف بابٍ كيف جالا
ومن حذر المنيّةَ عن يمينٍ ... تدور به فتاخذهُ شمالا
من الله السلام على امير ... دفنّا المجد معهُ والجلالا
كأنّ الموت لم يجسر عليهِ ... مجاهرةً ففاجأهُ اغتيالا
فتىً كالسيف ارهافًا وقطعًا ... ومثل الرمح قدًّا واعتدالا
ومثل البدر اشراقًا وحسنًا ... ومثل الغيث جودًا وابتذالا
أجلُّ بني الكرام ابًا وجدًّا ... واكرمُ رهطهم عمًّا وخالا
واحسنهم واجملهم فعالا ... واوثقهم واصدقهم مقالا
كريمٌ من كريمٍ من كرامٍ ... بنوا في المجد اعمدةً طوالا
سليل امير لبنانٍ ينادي ... الا لبنان لمّا ملتُ مالا
اذا قلتَ الامير ولم تسمّي ... فلا يحتاج سامعك السؤالا
سألنا تحت ممن عن نظيرٍ ... لهُ هل قام قال لا لا
ستبكيهِ البلادُ ومَن عليها ... الى ان تستفيض لهُ مثالا
وتُحصي الناسُ ما فعلت يداهُ ... ولكن بعد ان تحصي الرمالا

الى ان قال:

لبستَ اليوم ثوبًا من بياضٍ ... فزاد جمالك الباهي جمالا
الى دار السعادة سرتَ فوزًا ... كانك عاشقٌ يخبُ الوصالا
رايت العيش في الدنيا طريقًا ... لها فاخترت اقربهُ مجالا
على رمسٍ ترات بجانبيهِ ... سحابٌ يطرُ الماء الزلالا
وتعبق فيهِ رائحة الخزامى ... ويسطع فوقهُ نورٌ تلالا

وقال مؤرّخًا سنة وفاته:

هذا الامير السيد الحظ تخدمهُ ... ملائكُ الله حول العرش تجتمعُ

تقول ارقـام تاريخ نحيط بهِ ان الشهاب على الافلاك ترتفعُ

ولهُ فيـهِ تاريخ آخر حُفر على ضريحهِ في كنيسة الارمن الكاثوليك مرَّ لنا ذكرهُ (المشرق ٧ : ١٧٦٣) . ومما رويناهُ ايضاً لبطرس كرامة في مجلتنا (٢ : ١١١٦ : ١١١٧) مناظرة فكاهيَّة بين نارجيلة وماسورة

ومن مديحهِ الذي لم يُذكر في الديوان قولهُ يثني على البطريرك الجليل مكسيموس مظلوم:

قُمْ للهنـاء فنسـمة السحر جاءت بريَّا عاطر الزَّهَرِ
واغنم من العيش الهني طرباً عين السرور لمشرق الاثرِ
وارشق كؤوس الصفو من زمنٍ راقت مشاربهُ من الكَدَرِ
ودَعِ النسيبَ وكن على عزلٍ بمديح بدر السَّادة الغُرَرِ
مكسيموس الحبر المقدس من اضحى طهور القول والفكرِ
البطريرك المرتقى شرفاً بفضـائلٍ يشرقن كالقمرِ
ملأت قداستهُ الورى منحاً منقودةً بالسمع والبصرِ
مولى تفرَّد في الفضائل في هذا الزمان وسالف العُصُرِ
راعٍ يقوم على الحقيقة في جِدٍّ جديدٍ غير منذثرِ
ولكم بتصنيفٍ ومتكفٍ افنى الليالي الدهم بالسهرِ
ما زال مجتهداً بنيل متى ولنيل نيل العزّ لم يسرِ
يستلُّ من فمِ اتقى سمماً فتَّاكةً باليضِ والسحرِ
باتت على أمنٍ رعيتهُ واطالما باتت على حذرِ
هو غوث ذي فقرٍ وذي نممٍ بذلاً ورشداً غير منحصرِ
بشرى لنا آل الكنيسة قد نلنا بهِ مجداً على وزرِ
يا بدرَ علمٍ ضاء مشتهراً شرقاً وغرباً اي مشتهرِ
ارضحت من نهج الهدى غُرَراً للناس كانت قبل في غَرَرِ
ورفعت شيباً كان منخفضاً ما بين ناب الليثِ والظفرِ
وظفرتَ بالنعم السنية من ملك الملوك الواهب الدُّررِ
فاسلَمْ لنا مولى وخير اب يرعى البنين بصادق النظرِ
والى مقامك ان نؤرخهُ جاء الهنا بعلامة الظفرِ

ومما جاء لهُ في التهاني قولهُ في ولادة الامير عبد الله الشهابي حفيد الامير بشير سنة ١٢٣٥ لم تذكر في ديوانهِ:

يا سيد الدل والاحسان زد شرفاً قد زادك اللهُ اتماماً وتأييدا
لك الهنا بمفيد كان مولدهُ للسعد عزّاً وللعلياء توليدا

فيا لهُ من كريم ضاء طالعهُ واشرق المجد لمَّا حلَّ مولودا
لهُ السيادةُ من جدّ سما وابٍ اضحت يداهُ تفيضُ البذل والجودا
فلا يزال هو المحمود سؤددهُ مدى الزمان سعيد الدهر مسعودا
ولا تزال لك الأيام ضاحكةً والعيش رغدًا وطيبُ العمر ممدودا

وقال في فضائل الصيد (وليست هي في ديوانهِ):

للصيد فضلٌ في ثمان فوائدٍ من بعدها عشرٌ تشيد اساسهْ
سلوان همٍّ ثم ترك بطالةٍ وفصاحة التعبير ثمَّ سياسهْ
وتراهة ولذاذةٌ ونشاطةٌ ويقاظةٌ ونباهةٌ وحماسهْ
ورياضةُ الاجسام ثمَّ طلاقة م الابصار ثمَّ حلاوة وفراسهْ
وصيانةٌ ثمَّ اكتساب سبيئةٍ والعلم بالطرقات ثمَّ رئاسهْ

ومما لم نجدهُ ايضًا في ديوانهِ قولهُ في صَفْر كان فُقد ثم رجع:

تلالا البِشْرُ وانجلت النياهبْ وحلَّ الانس في من كان غائبْ
وردَّ الله ضائتنا علينا وأولانا بذا نِعَمَ المواهبْ
رجاء الصَّقْرُ المفقود منَّا يرفرف بالتمائم والمكاسبْ
فكم طبنا بعودتهِ قاوبًا وبتنا في الحديث لهُ نناسبْ
وانشدناهُ ما لك غبتَ عنَّا لملك كنت انت منَّا هاربْ
فردَّ مجاوبًا ردًّا جميلًا ساذ الله لي من ذي الشوائبْ
وحاشا ان اخون العهد يومًا ولي مولًى جليل القدر صاحبْ
ولكن قد شعرتُ بتمَّ صقرٌ اعزّ الآلِ مني والاقاربْ
أتى ضيفًا جديدًا في حمانا تزيّلا والتريلُ قِراهُ واجبْ
فسرتُ لملتقاهُ وجئتُ سعيًا امينًا مطمئنَّ القلب طائبْ
لكني قد قضيتُ بذا هومًا وكم نابتْ فيهِ من متاعبْ
وكم شاهدتُ اهوالًا ثقالًا واحوالًا رأيتُ بها العجائبْ
وكم كابدتُ في سفري عناء وكم فيهِ دهتني من مصائبْ
وكم لي وقعةٌ مع كلّ حرٍّ وكم لاقيت شاهينًا محاربْ
وكم صادفت فيهِ من عُقابٍ شديد البأس تنأى معاقبْ
وكم من كاسر من كل طيرٍ تعمَّدني وجاء عليَّ واثبْ
هناكَ أبنت بطشي واقتداري وابديتُ العجائب والغرائبْ
وجرَّدتُ الاظافرَ من اكفّ مظفَّرة وانشبتُ المخالبْ
وبتُّ بكل ذي جنحين اسطو وافهر كلَّ خطَّافٍ مضاربْ
فكم شتَّتُّ منهم في الفيافي وكم بددتُ منهم في السباسبْ
وكم غادرتهم في الجوّ قرصى وكم افنيتُ منهم في الشعائبْ

ولم انفكّ اسقيهم كؤوسًا اجرّعهم بها مرّ المشارب
ولم اترك جسمي الّا فراخًا يباني في الشوش غدت نوادب
فثلي من يخوض وغى المنايا ويغزو هكذا ويعودُ غالب
انا المجلوبُ من كرم ولكن بعون الله للاحرار جالب
فهنّوا سيدي بي في مقالي بؤرّخ جاء بعد العزّ كاسب

وقال لمّا دخل الاستانة العليّة مع الامير بشير يمدح دار السعادة :

مذ جئتُ اسلبولَ شمتُ محاسنًا دعت المحاسنَ كلهنّ الى الورا
فلوكها شرفُ الملوك وربّها خير الربوع واهلها نعم الورى

ولولا خوف الاطالة لروينا غير هذا من قصائده التي لم تُطبع في ديوانه . فاكتفينا بما سبق . ويحسنُ بنا القول في ختام كلامنا عن بطرس كرامة انّ ادباء عصره عرفوا فضلهُ واقرّوا به الّا البعض منهم . ولما قال قصيدتهُ الحائيّة الشهيرة التي التزم ان تكون قافيتها في جميع ابياتها لفظة « الحال » في معانيها المختلفة واوّلها :

أمن خدّها الورديّ أقتبست الحالُ قبسًا من الاجفان مدمعك الحالُ

أعجب بها كثيرون وأثنوا على قائلها . وعارضها الشيخ عبد الباقي العمري الموصلي بقصيدة كتبها في بغداد يمدح فيها داود باشا هذا مطلعها :

الى الروم اصبو كلما اومض الحالُ فاكبُ دمعًا دون تكتابه الحالُ

وغيرهم خمّسوها كالشيخ ابراهيم يحيى العاملي والشيخ موسى بن شريف المشهدي وتخميسها في ديوان كرامة (ص ٣٥١ — ٣٦٠) . لكنّ الشيخ صالح التميمي لم يستحسنها وكتب في تزييفها قصيدتهُ التي اوّلها :

عهدناك تعفو عن سيء تعذّرا ألا فاعفُنا عن ردّ شعر تنصّرا

فاستاء من ذلك الادباء وكتب الشيخ رشيد الدحداح في قطرة الطوامير انتقادًا مطوّلًا على صاحبها . واجاب عليها بطرس كرامة بقصيدة من البحر والروي اوّلها :

لكل امرئ شان تبارك من برى وخصّ بما قد شاء كلًّا من الورى . .

وقد وقفنا على قصيدة للسيد عبد الجليل البصري حكم فيها بين الشاعرين فقال قصيدتهُ التي افتتحها بقوله :

حكمتُ وحكمي الحقّ ناء عن المرا بأنّ التميميّ الاديبَ تسنّما

بذمّ قوافٍ في مقام جناسها وذلك نوعٌ في البديع تقرّرا

ومنها في مدح بعض شعراء العرب :

وقد قام من اهل الكتابين زمرةٌ جنوا من رياض الشعر ما كان نزهرا
فمن كابن عبّادٍ يجاري بهلّلا وكان سبيجاً تقدّم يشكرا
وكالاخطل المعروف شاعر تغلب يسوق به القسّيس في الدير كاثرا (١

ومنها في مدح بطرس كرامة:

كما شاع حرّ الشعر في بيت بطرسٍ وفي نجلهِ بين المدابن والقرى
فصبحٌ رقى اوج البلاغة يافعاً فاشعارهُ حلّى بها ربع قيصرا
لافكاره غرُّ القوافي قريبةٌ ومن غيره بُعد الثريّا من الثرى
الى منهُ نظمٌ عدَّ حجة صالحٍ وان كان في المنظوم قدماً تصدّرا
وقد كان لي من صالح خير صحبةٍ وعند اتّباع الحقّ ما زلت اجدرا
لكلّ تراني قد قضيت بحقهِ واسأل باريا الهدى والتبصّرا

وقد مدح صاحبَ الترجمة قومٌ من ادباء زمانهِ كنصر الله الطرابلسيّ الذي سبق شيء من قولهِ . وكنقولا الترك وفي ديوانهِ عدة قصائد يطريهِ فيها بمحامد بطرس كرامة فيجيبهُ هذا باقوال مستطرفة تجدها في مجموع نظمهِ (ص ١٠٩ — ١٢٨)

وممن مدحهُ عبدُ الحميد البغداديّ الشهير بابن الصباغ فكتب اليهِ رسالة اوّلها:

تبسّم الزهر عن انفاسكم فسرى من طيب ذكركمُ نشرًا فاحيانا
فمن هناك عشقناكم ولم نركمْ والاذنُ تعشق قبل العين احيانا

فاجابهُ بطرس كرامة بكتابٍ افتتحهُ بقولهِ:

عشقتكمْ من قبل لقياكمُ وكمْ يشوق بما يوصفُ
كالشمس لا تدركها مقلةٌ لكنها من نورها تُعرفُ

وكذلك مدحهُ رزق الله حسون الحلبي وسنذكر قولهُ في ترجمتهِ . واشهر منهُ الشيخ ناصيف اليازجيّ فانّ ديوانهُ الذي طُبع لاوّل مرّة في بيروت مصدّر بقصيدة في مدح كرامة يقول فيها:

رجلٌ واذا وصفهُ وكفى بهِ رجلٌ لهُ المفهومُ والمنطوقُ
حسنُ المعاني واليان كلامهُ جزلٌ ومنشاهُ الرقيقُ دقيقُ

ومنها:

يا بطرسُ الشهمُ الكريم مكانهُ وبنانهُ ولسانهُ المنطيقُ

(١) راجع مجاني الادب (٤: ٢١٥) وهناك اشارة الى هذه القصّة

انتَ الكرامةُ وابنها وابٌ لها نسبٌ كريمٌ في الكرامِ عريقُ

ولهُ ايضاً يعزيهِ بولديهِ وهو رثاء بليغ اولُهُ :

أجملَ اللهُ في فؤادكَ صبرا وجزى منهُ واعظمَ أجرا

ومنها :

لو يُفيد البكاء والنوحُ شيئاً لأقامت خنساء قبالكَ صَخْرا
يطمع المرء في الحياة طويلاً وهو في الموت او عن الموت قِقْرا
وحياة الدنيا تسمّى حياةً مثلما تُحسَبُ المجرّةُ نَهْرا
هكذا الناسُ عابرٌ إثر كابٍ كلُّ عينٍ بدمعة البين شكرى
يا طريق البقا اذا كنت شيراً فلك الفضلُ كلّما زدت قِصْرا
وحياة الدنيا طريق الى الاخرى فخذْ زادها الذي هو أُمرى

وقال الشيخ يؤرخ سنة وفاتهِ ١٨٥١ :

مضى من كان اذكى من اياسٍ بحكمتهِ وأشعرَ من زهيرِ
فقُلْ يا ابنَ الكرامة قرَّ عيناً لبطرس أرّخوه ختامَ خيرِ

ومن اشتهروا في هذا الطور الثاني اديب عاجلتهُ المنيَّة فتصفت غصن حياتهِ النضير وهو احد نصارى صيداء جرجس بن يوسف بن الياس ايلا الذي روينا شيئاً من شعره في المشرق (٦ : ٢٩٣ — ٢٦٥) وكان هذا الشابُّ مكفوفاً وهو شديد الذكاء والنباهة يقول الشعر عن سليقةٍ وكانت وفاتهُ سنة ١٨٤٩ وهو في الربيع السابع عشر من عمره فأرخهُ بطرس كرامة بقولهِ :

بُنيَّ لآبيلا يذا الماجد قد ثوى بصيرٌ ذكيٌّ شاعرٌ متفرّسُ
ولمّا قضى نودي تنعّمْ مؤرخاً ونلْ فرحاً في جنة الخلد جرجسُ

وكان جرجس ايلا مع صغر سنهِ يكاتب ادباء عصرهِ فكاتب ابراهيم بك ابن بطرس كرامة فقال فيه ولعلَّ هذه الابيات لاخيهِ رفول :

لقد احييتَ فضل ابيك حتّى بفضلك فقت والدك الحكيما
ابوك لقد بنى لك بيت مجدٍ وزدتَ بمجدك المجد القديما

وكاتب الشيخ ناصيف اليازجيّ فمدحهُ بقصيدةٍ لم نعرف غير مطلعها :

يحور الهوى قد اغرقت كلَّ سابحٍ وقصّر في ميدانهِ كلّ راجحِ

فكان جواب الشيخ بقصيدةٍ قال فيها مثنياً على الشاعر المحدث :

هويتُ الذي اعيى الطروم فؤادهُ فاعطتْهُ منها سانحاً بعد بارحِ
تيمّنتُ باسم الخضر فيهِ وطالما ترى المرءَ لا يخلو اسمهُ من لوائحِ

وجدتُ بهِ بل منهُ متعةَ سامعٍ ويا حبَّذا لو نالتُ رؤيةَ لامحِ
بهِ حسدت عيناي أُذني وربَّما تُخصَّص بالاقبال بعضُ الجوارحِ

ومن حسن اقوال جرجس ابيلا قصيدة مدح بها السيّد عبد الله الجابري منها:

دُعيتَ بعبد الله انك سيّد وبالجابريّ الالمعيّ لتجبرا
واصبحَ ذو فضلٍ بجبك هائمًا واضحى بك الشاني الظلومُ مكدَّرا
حويتَ التُّقى والجدَّ والمجد والهدى من الجدّ حتَّى طبتَ فرعًا ومنصرا

ولهُ من قصيدة مدح فيها الشيخ يوسف الاسير:

فيوسف يُدعى بالاسير لأنَّهُ يسيرُ اليهِ الحلم في غاية الأسرِ
فهيمٌ كريم فاضلٌ متأدّبٌ فداستوجب المدح الجزيل مع الشكرِ
قد استوجبَ الرّفع الرفيع مع الثنا لكثرة ما فيهِ من الشيم الغُرِّ

وكان لجرجس ابيلا اخٌ اكبر منهُ يُدعى رفول وكان ايضًا مكفوفًا كشقيقهِ ويشبههُ في توقد ذهنهِ وفصاحة لسانهِ لكنهُ عاش دهرًا بعدهُ وكان يقول مثلهُ الشعر وقد شبههما اهل زمانهما بابي العلاء المعرّي فقيل انهما حكياهُ في ادبهِ كما حكياهُ بفقد بصرهِ. وتأدب على رفول بعض الادباء فاشتهروا بعدهُ بالكتابة منهم فقيد الادب نقولا بك ترما المحامي الشهير المتوفي في مصر السنة المنصرمة. ومن شعر رفول ابيات نجت من ايدي الضياع اثبتناها في المشرق (٦ : ٢١١) منها قصيدة قالها في احد الادباء اوَّلها:

يا نسيم الصبح خُذْ عني السلام نحو قومٍ هيَّجوا فيَّ هيامْ

ومن اقوالهِ في الشرق الى بعض الاحباب:

اخبر الاحبابَ عني انني بعد بُعدي عنهمُ ذقتُ الندمْ
طيفهم ان بعدوا عن مقلتي لم يفارقها دوامًا وهي لمْ
فعسى احظى برؤياهم ولي رمقٌ كي اشتفي من ذا الالمْ
وعلى الله اتكالي فالذي يُخلص الآمال فيهِ لم يُخَمْ

وفي هذا العهد كان ايضًا الشماس حنَّا الماروني المعروف بالقزي وزّي كان يقول الشعر الحسن بالمواضيع الدينيَّة لكن اكثرهُ قد فُقد. ومما سلم منهُ تخميسهُ لقصيدة الطيب الذكر المطران جرمانوس فرحات في مريم العذراء وقد عثرنا على نسختين من هذا التخميس احداهما عند الرهبان الموارنة البلديين قال في مطلعه:

كلّ النبيّين الذين تقدَّموا في مدح سيدةِ الانام تكلَّموا
فلذا يُنادِيها الفؤادُ المغرمُ لو كان للافلاك نطقٌ او فمُ
لترنَّموا بمديحك يا مريمُ

(لهِ بقية)